إلى المسئولين عن الفلاح

لنا على الفلاح مسئولية لعله يؤديها خير الأداء ؛ فنحن الذين يتناولون من كد الفلاح غلة الزرع والسقى والحصاد، نحاسبه على هذه الغلة حساب المسئول ، وهو لا يملك بمقتضى موقفه إلا أن يؤدى لنا حساب هذه المسئولية .

وللفلاح علينا مسئولية التفت دعاة الاصلاح إلى جانبها المادى فعملوا يحسنون أداءها ، ولم يلتفت سواهم إلى جانبها التهذيبى مما تحققه القدوة الطيبة قولا وعملا، فلم يؤدوها أو لم يحسنوا أداءها على الأقل .

ونريد بهؤلاء كل من يصح أن يوضع فى هذا الجانب موضع المسئول مباشرة عن الفلاح. والمسئولية فى هذه الناحية متدرجة على مقتضى قرب الصلة به وبعدها عنه ، فالمالك الكبير الذى يعمل الفلاح فى أرضه يخل هذه المسئولية قبل أن يحملها غيره ، ومأذون القرية الذى تتيسر له وسيلة الموعظة الحسنة أكثر مما تتيسر لحامل الفأس وسائق المحراث توجه إليه المسئولية قبل أن توجه لسواه ، والمعين الوجيه والعمدة صاحب النفوذ ومأمور المركز ورجاله يجيئون فى حمل المسئولية متتالين ، ثم تتركز هذه المسئوليات فى يد المدير، لأنه هو المسئول أولا عن مراقبة هؤلاء جميعا ليرى هل أدى كل واحد منهم ذمته فأدى ما هو مسئول عنه ، ولينظر كيف يوجههم إلى خير الوسائل لتأتى النتائج طيبة نافعة ، وهو المسئول ثانيا عما عليه هو مما يتعلق بمسئوليته الخاصة .

إن المالك الكبير يطلب من الفلاح أن يرضيه بحسن العمل فى أرضه ليأخذ محصولا حسنا ولكن هل طلب من نفسه أن يرضى الانسانية بحسن رعاية هذا العامل المكدود فى عيشه وصحته وفى عيش أهله وأبنائه وصحتهم ؟ قد يمر صاحب الأرض بين مزارعه ليرى ماذا يفعل هؤلاء الفلاحون ، وقد يشاهد أحدهم وهو يتلوى من شدة الألم والفأس فى يده يضرب بها الأرض، وقد لا يغيب عنه أن فلاحه هذا إنما يتلوى من الأوجاع فى أمعائه أو كبده أو طحاله ، بل قد لا يجهل كلما رأى إمتقاع لونه وهزال جسمه وانتفاخ بطنه أنه فريسة البلهارسيا

أو الانكلستوما أو البلاجرا أو الملاريا، ومع ذلك فهل أحسن توجيهه فأعفاه من العمل ريثما يرسله إلى الطبيب أو ينصحه بالذهاب إلى المستشفى أو يوصى به أطباء العلاج خيرا؟ أصدق الجواب أنه لم يفعل ذلك فرجاؤنا منذ الآن أن يفعله .

أما مأذون القرية فلا يرضيه من الفلاح إلا أن يقبل يده إذا صافحه وأن ينهض قائما إذا أقبل عليه، وأن يجزل له العطاء إذا عقد له عقد زواج، ولكن هل راقب الله والمروءة فيه فوعظه بالحسنى ونصح له بالهداية والتزم معه الدلالة على طريق الخير؟ هنا أيضا لا يصدق الجواب المثبت، ولا تمتنى على حضرة المأذون أكثر من أن يجود بهذه الموعظة .

وأما العمدة فيجب من الفلاح فوق الاحترام المبذول والتوقير الدائم أن يعترف له بالسيادة المطلقة والجاه العريض، ولا يرضيه إلا أن يهتف لركابه، ويخشع عند بابه، ولكن عمدة هذه الأيام أصبح — فى الأعم الأغلب — بصيرا بما يضر الأحياء وما ينفعهم، كما أصبح خبيرا بأوضاع الحياة وأساليب العيش فى قريته خبرته بذلك فى بيته، حتى لا يكاد يمر يوم من أيامه دون أن يرى صبيان القرية وهم يخوضون بركتها الراكدة ومستنقعها القذر، أو دون أن يشاهد أطفالها وهم فى حبوهم بين الأقذار يرفعون إلى أفواههم أرواث البهائم وقطع الوحل مما يقع فى الطريق أو يدلكون أعينهم بأيديهم وهى ملوثة بالوحل والأرواث، فهل أدرك أن من حق هؤلاء الأطفال والصبيان وحق أهلهم وحق الانسانية عليه أن ينصح الآباء والأمهات بصيانتهم من النكبات التى ترميهم بها هذه الحالة؟ وهل حاول أن يدلهم بالأمثلة التى تؤديها المشاهدة على ما تجره عليهم هذه الحالة من التعس والشقاء؟

ومثل العمدة أعيان القرية ووجهاؤها، وإنما نريد أولئك الذين آثروا البقاء فى بلادهم على الهجرة إلى المدن، فهؤلاء يستطيعون بحسن التوجيه وبالنصح الخالص والإرشاد الطيب أن يسدوا إلى أهل قراهم من الخير ما يرفع عنهم مسئولية التفريط فيما تطلبه منهم حقوق الجوار والمواطنة، وما تقتضيه ذمة الانسان على أخيه الانسان .

وقد تكون القدوة فى القول والعمل أبلغ أثرا وأقرب فائدة، فان الفلاح مطبوع على الرغبة فى تقليد الكبراء من أهل بلده كلما وجد سبيلا الى هذا التقليد، فهو كما يقلدهم فى الاستدانة بالربا والجلوس على القهوات ومباشرة المفاسد ليباهى بأنه يفعل مثل ما يفعلون كذلك يقلدهم فى الاستقامة والجد والعمل الطيب ويصدقهم فيما ينصحونه به من أسباب الخير إذا وجدهم لا يهملون فى أنفسهم هذه الأسباب .

وليست العبرة فى ترقية الفلاح وإصلاح شأنه بمجرد التيسير عليه فى التغذية والمسكن والملبس مع الاحتفاظ له فى ذلك بالأصول الصحية، ولكن العبرة قبل هذا أن تتيسر له

أسباب التهذيب وحسن الإدراك ليفهم ما يضره فى نفسه وأهله فيتجنبه ، وليقتنع بأن كل ضرر يلحقه فى شخصه أو فى أبنائه مما تضيع به الصحة وتعتل الأبدان والنفوس إنما يفسد عليه حياته فى يومه وغده ، ويكدر عيش أبنائه فى مستقبل أيامهم اذ لا يستطيعون مع اعتلال النفوس والأبدان أن ينهضوا بما تتطلبه دواعى الحياة وأسباب العيش من التكاليف الشاقة.

ومن عادة رجال الإدارة ومأمورى المراكز أن يستدعوا الأعيان والعمد ومشايخ البلاد الى اجتماعات يوصونهم فيها بالسهر على الامن ، ويبلغونهم ما تطلبه الوزارات المختلفة فى منشوراتها الدورية من وسائل حفظ الامن والاجتهاد فى تحصيل الضرائب والعناية بالزراعة والعمل لمكافحة الآفات التى تفتك بالمزروعات ، ومع أن أكثرهم يرى أن مجرد هذا التبليغ يكفى فى صورته الآلية لأداء الواجب فانهم على كل حال يحققون به مخاطبة المسئولين من أهل البلاد فيما ينفعهم وينفع أهل بلادهم ، أما المسألة التى هى أهم من ذلك كله وهى قيام الرقابة الانسانية على مناهج الحياة وأساليب العيش فى القرى والعزب وحسن توجيه الفلاحين بهذه الرقابة الى الخير المطلوب قبل كل خير سواه فتلك مسألة يدل عدم وجود أثر لها على أنهم لم يعيروها شيئا من العناية والاهتمام .

ومن النادر جدا أن نسمع أن مديرا من حضرات المديرين دعا مرءوسيه من رجال الإدارة فى مراكز إقليمه الى اجتماع عام يحدثهم فيه بما عنده من الارشادات النافعة ، على أن هذه الاجتماعات النادرة جدا لا تكون فى الغالب إلا تنفيذا لما تريده الحكومة فى ظروف خاصة ، ولا يتلقى رجال الادارة فيها أكثر من التعليمات التى تتطلبها المصلحة فى مثل هذه الظروف ، ولا نذكر بعد ذلك أننا سمعنا أن أحدا من حضرات المديرين جمع مرءوسيه من رجال الادارة فأوصاهم أن يقوموا لأهل البلاد بواجب التوجيه الى ما تصلح به شئون حياتهم حسا ومعنى ، وكذلك لم يظهر أن أحدا منهم فكر فى اجتماع يدعو اليه عمد البلاد ومشايخها وأعيانها ووجهاءها ليفهمهم أن عليهم لله وللوطن وللانسانية حقا لا تبرأ الذمة منه ما لم يتعهدوا من حولهم من الفلاحين بالرعاية والنصح وحسن الموعظة ، حتى إذا أدركوا الأشياء على حقيقتها نشأت فيهم عادة الاختيار والتصميم فاجتنبوا قبائح القول والعمل ورغبوا فيما ينفع من كل حسن جميل .

والعجب أن تقارير المديرين ومأمورى المراكز لا تزال تشهد أن الوعظ الدينى أفاد فى بعض مناحيه فائدة مذكورة ، وهم يعلمون أن الوعاظ يذهبون الى القرى والبلدان بين الحين والحين ، فاذا كان للحديث الطيب مثل هذه الفائدة مع أنه قليل بسبب اتساع المجال على المتحدثين به ، فكم تكون المنفعة كبيرة إذا تكررت الأحاديث الطيبة على ألسنة المسئولين الآخرين كل يوم وفى كل مناسبة .

والآن نستطيع أن نعرف من هم المسئولون عن الفلاح على سبيل التعيين وعلى ترتيب الدرجات فى هذه المسئولية، فهم فى الدرجة الأولى عمدته وشيخ بلده ومأذون قريته ومواطنوه من الأعيان أو من أصحاب الأرض التى يعمل فيها ، وفى الدرجة الثانية مأمور المركز ورجاله وسعادة المدير فى سلطته الشاملة . وليس مما يحتاج الى البيان أنها مسئولية إنسانية يرجع الحساب عليها الى الضمير الانسانى وحده ، وهؤلاء جميعا فى استطاعتهم أن يصلحوا من شأنه بحسن التوجيه ما لا تصلحه القوانين أو ما يأتى إصلاحه معها بطيئا ، فمن أهون الأسباب عليهم أن ينظموا اجتماعات دورية يحدثون فيها الفلاحين بالنصائح النافعة ويشرحون لهم وسائل الخير وأسباب الشر باللغة التى يفهمونها، ثم يمنونهم بحسن الجزاء إذا سمعوا وأطاعوا، ويجعلون عليهم من أنفسهم رقباء يبعثون فيهم المنافسة فى العمل بما نصحوا به .

وليس قليلا ولا هينا عند الفلاحين أن يروا سعادة المدير فى قريتهم مهتما بشأنهم، وأن يحدوه مقبلا عليهم بالحديث إقبال المشفق الرحيم، وأن يسمعوا من حديثه أن مما يسره ويرضيه أن يفعلوا هذا الشىء من الأشياء لأن فيه ضمان الصحة لهم ولأهليهم أو ضمان اليسر لهم ولأبنائهم، وأن مما يحزنه ولا يقبله أن يتمادوا فى هذا الأمر من الأمور لأن التمادى فيه يتلف الصحة أو يسد أبواب الرزق .

وهذه الكرامة التى يحسها الفلاحون فى أنفسهم كلما فهموا من إقبال المدير عليهم أن لهم عنده قيمة مرعية هى التى يحسونها فى أنفسهم كلما رأوا العين الكبير والوجيه المحترم والعمدة المطاع مقبلين عليهم مثل هذا الاقبال ، ولا ريب أن شعور الصغير بأن له عند الكبير هذه القيمة المرعية يقذف فى قلبه الثقة بهذا الكبير والاطمئنان له ، ويجعله أقرب الى طاعته والعمل بنصحه .

إن رحاب القرى لا تضيق بهذه النصائح يسمعها الفلاحون كل يوم من العمدة أو نائبه وكل أسبوع من المأمور أو من ينيبه عنه ، وكل شهر من المدير أو وكيل المديرية .

وإنا لنعلم أن فى هؤلاء جميعا استعدادا للخير يبعثون به من أنفسهم ، فنحن إنما نذكرهم بما نعتقد أنه فى حسابهم من قبل .